الإشـــراق الإلهي
وفلسفة الإســلام

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

كما تطلع الشمس بأنوارها فتنفجر بنبوع الضوء المسمى النهار، يولد النبي فيوجد في الانسانية ينبوع النور المسمى بالدين. وليس النهار إلا يقظة الحياة تحقق أعمالها، وليس الدين إلا يقظة النفس تحقق فضائلها.

والشمس خلقها الله حاملة طابعه الالهي في عملها للمادة تُحوّل به وتُغيّر، والنبي يرسله الله حاملاً مثل ذلك الطابع في عمله للروح ترتق فيه وتسمو.

ورعشات الضوء من الشمس هي قصة الهداية للكون في كلام من النور، وأشعة الوحي في النبي هي قصة الهداية لانسان الكون في نور من الكلام.

والعامل الالهي العظيم يعمل في نظام النفس والأرض بأداتين متشابهتين: أجرام النور من الشموس والكواكب، وأجرام العقل من الرسل والأنبياء.

فليس النبي انساناً من العظماء يُقرأ تاريخه بالفكر معه المنطق، ومع المنطق الشك، ثم يُدرس بكل ذلك على أصول الطبيعة البشرية العامة؛ ولكنه انسانٌ نجميٌّ يُقرأ بمثل «التلسكوب» في الدقة، معه العلم، ومع العلم الايمان، ثم يُدرس بكل ذلك على أصول طبيعته النورانية وحدها.

والحياة تنشئ علم التاريخ، ولكن هذه الطريقة في درس الأنبياء صلوات الله عليهم — تجعل التاريخ هو ينشئ علم الحياة؛ فانما النبي إشراق إلهي على الانسانية يقومها في فلكها الأخلاقي، ويجذبها الى الكمال في نظام هو بعينه صورة لقانون الجاذبية في الكواكب.

ويجيء النبي فتجيء الحقيقة الالهية معه في مثل بلاغة الفن البياني، لتكون أقوى أثراً، وأيسر فهماً، وأبدع تمثيلاً؛ وليس عليها خلاف من الحس. وهذا هو الأسلوب الذي يجعل انساناً واحداً فنّ الناس جميعاً، كما تكون البلاغة فن لغة بأكملها؛ هو الشخص المفسّر اذا تعسّف الناس الحياة لا يدرون أين يؤمون منها، ولا كيف يتهدّون فيها، فتضطرب الملايين من البشرية اضطرابها فيما تنقبض عنه وتتهالك فيه من أطماع الدنيا؛ ثم يخلق رجل واحد ليكون هو التفسير لما مضى وما يأتي، فتظهر به حقائق الآداب العالية في قالب من الانسان العامل المرئيّ، أبلغ مما تظهر في قصة متكلمة مرويّة.

وما الشهادة للنبوة إلا أن تكون نفس النبي أبلغَ نفوس قومه حتى لهو في طباعه وشمائله طبيعة قائمة وحدها كأنها الوضع النفساني الدقيق الذي يُنتصب لتصحيح الوضع المغلوط للبشرية في عالم المادة وتنازع البقاء. وكأن الحقيقة السامية في هذا النبي تنادي الناس: أنْ قابلوا على هذا الأصل وصححوا ما اعترى أنفسكم من غلط الحياة وتحريف الانسانية.

***

ومن ثم فنبي البشرية كلها من يُبعث بالدين أعمالاً مفصلة على النفس أدق تفصيل وأوفاه بمصلحتها، فهو يعطي الحياة في كل عصر عقلها العملي الثابت المستقر تنظّم به أحوال النفس على ميزة وبصيرة، ويدع للحياة عقلها العلميّ المتجدد المتغير تنظم به أحوال الطبيعة على قصد وهدى، وهذه هي حقيقة الاسلام في أخص معانيه، لا يغني عنه في ذلك دين آخر، ولا يؤدي تأديته في هذه الحاجة أدب ولا علم ولا فلسفة، كأنما هو نبعٌ في الأرض لمعاني النور بإزاء الشمس نبع النور في السماء.

وكل ذلك تراه في نفس محمد صلى الله عليه وسلم؛ فهي في مجموعها أبلغ الأنفس قاطبة؛ لا يمكن أن تعرف الأرض أكمل منها؛ ولو اجتمعت فضائل الحكماء والفلاسفة والمتألهين وجعلت في نصاب واحد — ما بلغت أن يجيء منها مثل نفسه صلى الله عليه وسلم. ولكأنما خرجت هذه النفس من صيغة كصيغة الدرة في محارتها، أو تركيب كتركيب الماس في منجمه، أو صفة كصفة الذهب في عرقه. وهي النفس الاجتماعية الكبرى، من أين تدبّرتها رأيتها على الانسانية كالشمس في الأفق الأعلى تنبسط وتضحي. وتلك هي الشهادة له صلى الله عليه وسلم بأنه خاتم الانبياء، وأن دينه هو دين الانسانية الأخير. فهذا الدين في مجموعه إن هو إلا صورة تلك النفس العظيمة في مجموعها، صلابته بمقدار الحق الانساني الثابت، لا بمقدار الانسان المتغير الذي يكون عند سبب جبلاً صلداً يشمخ، وعند سبب آخر ماءً عذباً يجري.

وهو دين يعلو بالقوة ويدعو اليها، ويريد اخضاع الدنيا وحكم

العالم ، ويستفرغ همه في ذلك ، لا لإعزاز الأقوى وإذلال الأضعف ، ولكن للارتفاع بالأضعف إلى الأقوى . وفرقٌ ما بين شريعته وشرائع القوة ، أن هذه انما هي قوة سيادة الطبيعة وتحكمها ، أما هو فقوة سيادة الفضيلة وتغلبها ؛ وتلك تعمل للتفريق ، وهو يعمل للمساواة ؛ وسيادة الطبيعة وعملها للتفريق هما أساس العبودية ، وغلبة الفضيلة وعملها للمساواة هما أعظم وسائل الحرية .

ومن هنا كان طبيعياً في الاسلام ما جاء به من أنه لا فضيلة إلا وهو يطبع عليها صورة الجنة بنعيمها الخالد ، ولا رذيلة إلا وهو يضع عليها صورة النار الأبدية وقودها الناس والحجارة ؛ فلا تنظر العين المسلمة الى أسباب الحياة نظرة الفكر المنازع يحرص على ما يكون له ، ويشره الى ما ليس له ، ويمكر الحيلة ، ويبدع وسائل الخداع ، ويزيد بكل ذلك في تعقيد الدنيا — بل نظرة القلب المسالم يخلع الدنيا ، ويسخو بكل مضنون فيها فيعف عن كثير ؛ ويعرف الانسانية ، ويطمع في غاياتها العليا ، فيعفو عن كثير ؛ ويدرك أن الحلال وإن حل فوراءه حسابه ، وأن الحرام وإن غر ليس إلا تعلل ساعة ذاهبة ثم من ورائه عقاب الأبد .

ويخرج من ذلك أن يكون أكبر أغراض الاسلام هو أن يجعل من خشية الله تعالى قانون وجود الانسان على الأرض ، فمن أي عطفيه التفت هذا الانسان وجد على يمنته ويسرته ملكين من ملائكة الله يكتبان أعماله بخيرها وشرها ، فهو كالمتهم المستراب به في سياسة النفس لا يمشي خطوة إلا بين جاسوسين يحصيان عليه حتى أسباب النية ، ويجمعان منه حتى زوات الكبد ، ويترجمان عنه حتى معاني النظر . واذا قامت هذه الحكمة الملائكية وتقررت في اعتبار النفس — قام منها على النفس شرع نافذ هو قانون الارادة المعززة ، تزيد الحسنات وتعمل لها ، وتخشى السيئات وتنفر منها ، فاذا معاني الجسد بعضها بعضاً ، لا لتحقيق الحكومة والسلطة ، ولكن لتحقيق الخير والصلحة ؛ واذا نواميس الطبيعة المجنونة في هذا الحيوان قد نهضت الى جانبها نواميس الارادة الحكيمة في الانسان ، واذا كل صغيرة وكبيرة في النفس هي من صاحبها مادة تهمة عند قاضيها في محكمتها ، واذا كل مافي الانسان ، وما حول الانسان — لا يراد منه إلا سلام النفس في عاقبتها ؛ واذا معنى السلام هو المعنى الغالب المتصرف بالانسانية في دنياها .

وكل أعمال الاسلام وأخلاقه وآدابه ، فتلك هي غايتها ، وهذه هي فلسفتها ؛ لا يقررها للانسانية حسب ، بل يغرسها في الوراثة غرساً بالاعتياد والمران الدائم ، لتكون علماً وعملاً ، فتمكن لسلام النفس بين الأسلحة المسددة اليها من ضرورات الحياة في أيدي الأعداء المتألبة عليها من شهوات الغريزة .

فليس يعم السلام إلا اذا عم هذا الدين بأخلاقه فشمل الأرض أو أكثرها ، فان قانون العالم حينئذ يصبح منتزعاً من طبيعة التراحم ، فاما انتسخ به قانون التنازع الطبيعي ، واما كسر من شرته ، ويولد المولود يومئذ وتولد معه الأخلاق الانسانية .

***

تقرير معنى الدوام لكل أعمال النفس حتى مثقال الذرة من الخير والشر ، وضبط ذلك برياضة عملية دائمة مفروضة على الناس جميعاً — هذا هو أساس العقيدة الاسلامية . ولا صلاح للانسانية بغيره يردها إلى سبيل قصدها ، فان من ذلك تكون الصفة العقلية التي تغلب على المجتمع وتجانس بين أفراده ، فتوجه الانسانية كلها نحو الممكن من كمالها ، ولا تزال توجهها نحو ماهو أعلى ، وتحكم فاسدها بصالحها ، وتأخذ عاصيها بمطيعها ، وتجعل الشرف الانساني غرضها الأول ، لأن الله الحق غرضها الأخير ؛ فيصبح المرء — وهذا دينه — كلما تقدم به العمر كمل فيه اثنان : الانسان ، والشريعة . ولا يعود طالب السعادة النفسية في الدنيا كالمجنون يجري وراء ظله ليمسكه ؛ فلا يدرك في الآخر شيئاً غير معرفته أنه كان في عمل باطل وسعي ضائع .

والاسلام يحرص أشد الحرص وأبلغه على تقرير ذلك المعنى الالهي العظيم ، لا بالنطق ولكن بالعمل ؛ ثم في النفس وعواطفها لا في العقل وآرائه ؛ ثم على وجه التعميم دون الاستثناء والخصوص ، وذلك هو سر مشقته على النفس بما يفرضه عليها ؛ فان فلسفته أن هذه النفس هي أساس العالم ، وأن النظام الخلقي هو أساس النفس ، وأن العمل الدائم هو أساس النظام ، وأن روح العمل الدائم تكون فيما يشق بعض المشقة ولا يبلغ العسر والحرج ، كما تكون فيما يسهل بعض السهولة ولا يبلغ الكسل والاهمال . وللنفس وجهان : ما تعلن ؛ وما تسر . ولا صدق لاعلانها حتى يصدق ضميرها ، ولا صلاح لجهرها حتى يصلح السر فيها ، ولا يكون الانسان الاجتماعي فاضلاً بمشهده حتى يكون كذلك بغيبه . وللعالم كذلك وجهان : حاضره الذي يمر فيه ، وآتيه الذي يستدله . ولا يفلح

حاضر منقطع لا يُوَرِّث مابعده كما وَرِث ماقبـله، وما حاضر الانسانية إلا جزء من عمل الناس في استمرار فضائلهم باقية نامية .

وللنظام أيضا وجهان : نظام الرغبة على الطاعة والاطمئنان لها ، ونظام الرغبة على الخشية والنَّفْرة منها . ولا يستقيم شأن ليس أساسه الطاعة في النفس ، ولا يستمر نظام عليه خلاف من فكر العامل به . وللعمل الدائم طريقتان : إحداهما طريقة الجادّ يعمل للعاقبة يستيقنها ، فلا يجد مما يشق عليه إلا لذة المغالبة للنصر ، كل مرارة من قبله هي حلاوة فيه من بعد ، ولا يعرف للمحنة يبتلى بها إلا معناها الحقيق وهو إيقاظ نفسه ، فيصبح الصبر عنده كصبر المحب على أشياء ممن يحبه ؛ صبر فيه من السحر مايكسو الحرمان في بعض الأحيان خيال الاستمتاع ، ويذيق النفس في العجز عن بعض أغراضها — لذة كلذة إدراكه .

تلك هي فلسفة الاسلام ؛ لا قوام للأمر فيها ولا مساك له إلا بتقرير معنى الدوام لكل أعمال النفس ، ووضع طابع الجنة على أعمال الجنة ، وطابع النار على أعمال النار — وحياطة كل فرد من الناس حياطة رياضية عملية بين الساعة والساعة ، بل بين الدقيقة والدقيقة ، بما يكلف من أعمال جسمه وحواسه ، ثم أعمال قلبه ونيته — وتعظيم الشخصية الروحية دون الشخصية المادية ، فلا يحاول كل انسان ان يجعل بطنه في حجم مملكة أو مدينة أو قرية بما ينتقص من حقوق غيره ؛ بل تتسع ذاتية كل فرد بما يجب له على المجتمع من الواجبات الانسانية . وبهذا لا بغيره تتعين مقاييس الأخلاق في الأرض — بالمصلحة لا باللذة — فلا يقع الخطأ ولا التزوير ، وتنحل المشكلة الاجتماعية مادامت الحياة لا تجد من أهلها كل ساعة عقدا فيها .

والاستيلاء بذلك المعنى على العقل والعاطفة هو وحده الطريقة لانشاء طبيعة الخير في الناس على نسقها الطبيعي ، كما أنه هو وحده الطريقة لتطهير التاريخ الانساني من أوبائه الاقتصادية التي جعلته كأنما هو تاريخ الأسنان والأضراس .. وتركت الناس يهدم بعضهم بعضاً ، كما يهدم الجار حائط جاره ليوسع بيته !

وأساس العمل في الاسلام إخضاع الحياة للعقيدة ، فتجعلها العقيدة أقوى من الحاجة ، فيكون الفقير معدماً ويتعفف ، ويكون الغني موسراً ويتصدق ، ويكون الشرهُ طامعاً ويمسك ، ويكون القوي قادراً ويحجم ؛ وكما قال العرب في تحقيق ناموس الأنفة والحمية وغلبته على الناموس الأقتصادي : تجوع الحرة ولا تأكل بثديها .

***

تريد الانسانية امتداداً غير امتدادها التجاري في الأرض ، وتحتاج إلى معنى يقود إنسانها غير الحيوان الذي فيه ، وإذا قاد الغراب قوماً — كما قال شاعرنا — يمر بهم على جيف الكلاب . . والانسانية اليوم في مثل ليل حَوْشيٍّ مظلم اختلط بعضه في بعض ، وليست معاني الاسلام إلا الاشراق الالهي على هذه الكثافة المادية المتراكمة ، وإذا رفع المصباح لم تجد الظلام إلا وراء الحدود التي تنتهي إليها أشعته .

وقد علمنا من طبيعة النفس أن إنسانية الفرد لا تعظم وتسمو وتتخيل وتفرح فرحها الصادق وتحزن حزنها السامي إلا أن تعيش في محبوب ؛ فانسانية العالم لا تكون مثل ذلك إلا إذا عاشت في نبيها الطبيعي ، نبي أخلاقها الصحيحة وآدابها العالية ونظامها الدقيق ؛ وأين تجد هذا المحبوب الأعظم إلا في محمد ودين محمد ؟

وعجيب أن يجهل المسلمون حكمة ذكر النبي العظيم خمس مرات في الأذان كل يوم ينادى باسمه الشريف مِلء الجو ، ثم حكمة ذكره في كل صلاة من الفريضة والسنة والنافلة يهمس باسمه الكريم ملء النفس ! وهل الحكمة من ذلك إلا الفرض عليهم ألا ينقطعوا من نبيهم ولا يوما واحداً من التاريخ ، ولا جزءاً واحداً من اليوم ، فيمتد الزمن مهما امتد والاسلام كأنه على أوله ، وكأنه في يوم لا في دهر بعيد . والمسلم كأنه مع نبيه بين يديه تبعثه روح الرسالة ، ويسطع في نفسه إشراق النبوة ، فيكون دائماً في أمره كالمسلم الأول الذي غير وجه الأرض ؛ ويظهر هذا المسلم الأول بأخلاقه وفضائله وحميته في كل بقعة من الدنيا مكان إنسان هذه البقعة لا كما نرى اليوم ؛ فان كل أرض إسلامية يكاد لا يظهر فيها إلا إنسانها التاريخي بجهله وخرافاته وماورث من اهله : فمنا المسلم الفرعوني ، وفي ناحية المسلم الوثني ، وفي بلد المسلم المجوسي ، وفي جهة المسلم المعطل... وما يريد الاسلام إلا نفس المسلم الأنساني .

أيها المسلم !

لا تنقطع من نبيك العظيم ، وعش فيه أبداً ، واجعله مثلك الاعلى ، وحين تذكره في كل وقت فكن كأنك بين يديه ؛ كن دائماً كالمسلم الأول ؛ كن دائماً ابن المعجزة .

مصطفى صادق الرافعي